

درجات الصلاة

من كتاب الكمال في الحياة المسيحية لروجو مارين

في هذا القسم سنتحدث عن "مراحل" الصلاة المختلفة: نستخدم تعبير مرحلة يغلب فيها الزهد ومرحلة يغلب فيها التعبُّد لأنه لا توجد في الحياة المسيحية مرحلة مقصورة على الزهد وأخرى مقصورة على التعبُّد. فالزهد والتعبُّد يتداخلان ويتبادلان كمظهرين لذات المسيرة الروحية الواحدة.

أولاً- مرحلة يغلب فيها الزهد .

١ - أول درجة في الصلاة : الصلاة الصوتية .

تعريف : الصلاة الصوتية هي التي تظهر بكلمات ملفوظة بلغتنا . وهي تمثل تقريباً الشكل الأوحده للصلاة العلنية واليتورجية - أي الطقسية . هناك شرطان لكي تُجرى الصلاة الصوتية جيداً : أ) التنبُّه : وقد يكون مادياً في حال العناية بملافظ الكلمات كي تكون صحيحة ، أو حرفياً إن كان بالحرص على معاني الكلمات ، أو روحياً وتعبدياً إن كانت العناية بغاية الصلاة أي الله والأشياء التي تُطلب . وهذا التنبُّه الأخير هو الأكثر امتيازاً مع أنه قد يكون من الأفضل الجمع بين كل تلك الأحوال حيث أنها قابلة تماماً للتوفيق فيما بينها . ب) تقوى عميقة : إن كنا بالتنبُّه نُعمِلُ عقولنا نحو الله ، فبالتقوى نُجري اتصالاً لقلوبنا وإرادتنا معه . تلك التقوى العميقة تقتضي وتفترض مجموعة من الفضائل المسيحية من الفئة الأولى : المحبة والإيمان الحي والتواضع والثقة والتقوى والاحترام والثبات .

٢ - الدرجة الثانية في الصلاة : التأمل .

تعريف : يُمكننا تعريف التأمل على أنه التطبيق العقلي في الذهن لحقيقة فائقة للطبيعة بهدف الاقتناع منها بتعمق أكثر فأكثر وبالتالي حبها وممارستها بمعونة النعمة .

أ) هو التطبيق العقلي في الذهن : أي أن يفكر الإنسان عقلياً في حقيقة ، ذلك بفحصها وإدراكها .
ب) ... لحقيقة فائقة للطبيعة : فليس الأمر دراسة علمية بل صلاة حيث يجتهدُ الذهن لكي يعقل حقيقة فائقة للطبيعة ، أي الحقائق الإيمانية المتضمنة سوى في قانون الإيمان أو في الكتاب المقدس أو في التعليم المسيحي أو في التعبيرات الليتورجية الطقسية .

(ج) ... بهدف الاقتناع منها بتعمق أكثر فأكثر: فالمرء يتأمل في تلك الحقائق لكي يقتنع منها .
(د) ... وممارستها بمعونة النعمة: فالحب خاصٌ بالإرادة التي عندما تستنير بالفهم العقلي تهتزُّ حبًّا تجاه الله وتهضُّ حبًّا له ، فهو الذي تقصده الحقيقة فائقة الطبيعة . فاعمال الإرادة قد تكون متعددة ، والعمل الأهم هو الخاص بالتأمل حيث تتحد الإرادة مع مشيئة الله ، أي تحتضن الإرادة غرضها .

٢ - أ - المادة

من الممكن إيجاد مادة التأمل في أماكن عديدة (كُتب ، الكتاب المقدس ، إلخ ...) . ولابد من التجوُّل فيما بينها بحريّة كبيرة . ومِنَ الموصّي به كثيرًا : الكتاب المقدس ، تعليم الكنيسة الكاثوليكية ، كل مؤلفات القديس توماس الأكويني (كاتينا أوربّا ، شرح في إنجيل القديس متى ، شرح في إنجيل القديس يوحنا ، شرح في قانون الإيمان ، ومثلها في صلاة أبانا ، في " السلام عليك " ، في " الوصايا العشر ") . ويجب مبدئيًا أن يكون التأمل سهلًا . ويوصّى بأن تُحضّر النقاط وتُدوّن ١٥ دقيقة قبل وقت العبادة .

٢ - ب - طريقة يوصّي بها الأب بويلا لتحضير التأمل .

ينصح بتحضير التأمل كل يومٍ أحدٍ مساءً بحسب الترتيب التالي :

الاثنين : تأمل .

الثلاثاء : تأمل .

الأربعاء : تأمل .

الخميس : تكرار النقاط التي تلمّسنا فيها أكبر قدر من الثمار .

الجمعة : تكرار النقاط التي لم نجد منها ثمارًا .

السبت : مراجعة لكل النقاط السابقة .

الأحد : التطبيق بالحواس ، أو مشاهدة تأملية .

٢ - ج - التأمل بحسب الطريقة الأغناطيوسية :

١ . الإعداد } السابق : هو الذي يُجرى في كل دقيقة من اليوم .

القريب : هو الذي ينصبّ على مادة التأمل .

٢ . تمهيد } صلاة استعدادية : المعتادة لطلب النعم اللازمة لإجراء التأمل جيدًا .

مكونات المكان : التفكير في مكان التأمل .

إلتماس : للنعمة الخاصة التي يُرجى نوالها من التأمل .

٣. قلب

التأمل

الذاكرة: لتذكر الواقع أو الموضوع بظروفه المتنوعة .

الفهم العقلي: التفكير في الحقيقة التي أتأمل فيها (ما الذي عليّ أن أخذه في الاعتبار بخصوص ذلك ؟ ما الذي يجب أن أستنتجه لحياتي ؟ ما الوسائل التي يجب أن أستخدمها لأنجح في ذلك ؟)

الإرادة: التي تدفع كل القدرات الأخرى إلى الصلاة ؛ وهي تنهك في المشاعر طوال زمن

الصلاة وخاصة عند نهايتها ، وتصوغ مقترحات عملية ملموسة نشيطة متواضعة وواثقة .

حديث: مع الله الأب، أو مع يسوع المسيح، أو القديسة العذراء مريم والقديسين (وهذا هام جدًا).

٤. فحص

فحص مختصر للتأمل: إن كنت قد جَئيتُ ثمر التأمل أم لا ، وهل اتَّبعْتُ ترتيبه ، وأين كنت مُشْتَتًا ، ... إلخ .

٣ - الدرجة الثالثة في الصلاة : الصلاة الشعورية .

تعريف: الصلاة الشعورية هي التي تغلب فيها مشاعر الإرادة على الخطاب العقلي . ذلك يمثل نموًا في الحياة الروحية ، لكن لا يجب أن نجبر أنفسنا على شكل الصلاة هذا . هناك أربع نصائح يجب اتباعها على الصعيد العملي :

١ - عدم التوقف عن المخاطبة الواعية قبل أن يكون شعور الإرادة قد تَمَّ الإحساس به . فيستخدم أولاً التفكير المتمعّن والفهم العقلي قبل أن تلحقه المشاعر .

٢ - عدم إرغام الذات على الشعور لأن المشاعر يجب أن تسيل بطريقة عفوية . فحين تَسْكُتُ المشاعر فهي تُثار بعدوبة إنطلاقاً من المخاطبة .

٣ - عدم القلق بخصوص المرور من شعورٍ معيّن إلى آخر ، فعلينا أن نَبْقَى مع الذي لدينا .

٤ - العناية بتخفيض كَمِّ المشاعر وتبسيطها لأنها قد تكون كثيرة عند البداية ، ولكن بقدر ما تتقدّم النفس يكون مناسباً أن نبسّط المشاعر إلى أن نصل إلى الوحدة .

ذلك التصاعد في الصلاة يعود علينا بميزات عديدة ، فهو يمنحنا تدريباً عظيماً لحبّ الإرادة تجاه الله . والفضائل تتنمى بالشكل المناسب ، فنشعر بتعزيات محسوسة ، ممّا يقودنا إلى استعداد لدرجة من الصلاة أعلى وأكثر كمالاً .

أما المعوقات التي من الضروري تجنبها فهي: إنتاج المشاعر بطريقة عنيفة ، الاعتقاد بأننا تقدمنا كثيرًا في الحياة الروحية ، الشرُّ الروحي ، وكسل النفس .

٤ - الدرجة الرابعة في الصلاة : صلاة البساطة .

تعريف: إن تعريف صلاة البساطة (وتُسمَّى أيضًا بصلاة الخشوع المكتسب ، أو بصلاة التبصّر البسيط ، أو بالتأمل المكتسب) هو أنها الرؤية البسيطة أو الانتباه المُجَبَّ تجاه موضوع إلهيٍّ معيَّن: إما الله بذاته أو إحدى أوجه الكمال لديه أو حقائق مسيحية أخرى .

إنها عبارة عن صلاة تزهّدية متبسّطة تمامًا ، وفيها قد تحولت المخاطبة إلى رؤية عقلية خالصة ، والمشاعر المتنوعة إلى التفاتٍ محبٍّ لله . وهنا تعمل النفس القليل لكنها تتلقى الكثير (النظر والحب) .

نصائح :

- تسعى النفس لثلاث تسبق ساعة الله . فطالما تستطيع المخاطبة واستخلاص الثمار من التأمل العادي ، فهي لا تتسبّب في إيقاف المخاطبة . وفي جميع الأحوال فعلينا ألا ننشغل ولا حتّى بالتأمل لو كان الروح يتلذذ بتلك المشاهدة التأملية المُحبّة .
- عدم إهمال إعداد المادة التي بها نصلي .

ثانيًا : مرحلة يغلب فيها التعبّد .

تعريف: إن المشاهدة التأملية النافذة هي إحساس بديهيّ بسيط بالحقيقة الإلهية المنبثقة عن الإيمان والمتمثلة بواسطة المواهب العقلية وبمواهب الحكمة والعلم على أكمل وجه . وما يجب أن نوّكد عليه قبل كل شيء في أشكال الصلاة هذه هو عمل الله في النفس .

١ - الدرجة الأولى في الصلاة : الخشوع النافذ .

إن صلاة الخشوع النافذ تتميّز قبل كل شيء باتحاد العقل مع الله " الذي - كما يكتب الأب أرينتيرو - بجماله وصفائه اللامتناهي يجتذبه ويُجمّله من الخارج ، أي موضوعيًا مجردًا عن الغرض ؛ بينما من الداخل فالله بفضيلته القديرة يملك العقل ويُخضعه ويربّحه بينما يُغنيه بمواهب ثمينة من العلم والمشورة والفهم العقلي التي بواسطتها يُدخله مباشرة إلى العالم الأسمى حيث تشعّ روائعُه الفائقة للوصف " .

٢ - الدرجة الثانية في الصلاة : السكينة .

إن صلاة السكينة تتكون من إحساس حميم بحضور الله ، يأخذ بمجامع الإرادة ويملاً النفس والجسد بعدوثة وبهجة تفوقا الوصف حقاً .

٣- الدرجة الثالثة في الصلاة : صلاة الاتحاد .

صلاة الاتحاد هي تلك الدرجة في المشاهدة التأملية النافذة التي فيها تصير كل القدرات الداخلية أسيرة لله ومنشغلة به .

٤- الدرجة الرابعة في الصلاة : الإتحاد المستقرّ أو ارتباط الزواج الروحي .

في الإتحاد المستقر تتحقق الخطبة الروحية . إنه يضيف إلى الدرجة السابقة - التي فيها تتحد بالله بطريقة حميمة قدرات النفس والحواس الداخلية - تعليق عمل الحواس الجسدية الخارجية . وذلك الإتحاد التعبدي شديداً إلى حدّ أن الجسد المسكين لا يُمكنه تحمّله فيحدث الانخفاف .

٥- الدرجة الخامسة في الصلاة : الإتحاد الذي يُحوّل ، أو الزواج الروحي .

يُعرّف القديس يوحنا الصليبي ذلك الإتحاد : إنه تحوُّلٌ كاملٌ إلى المحبوب ، يُسلم فيه كلا الطرفين نفسه للآخر ، ناقلاً امتلاكه الداخلي لذاته إلى الآخر ، بشكل خاص من إتمام الإتحاد في الحبّ ، حيث تتألّف النفس فتصير " الله بالمشاركة " ، بقدر المستطاع في هذه الحياة .